الفصل الثامن

الزوج النبي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٨ - ٢٩

" أما بعد ، ايها الناس ...فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا .

لكم عليهن ان لا يوطئن فُرشكم احدا تكرهونه ، وعليهن ان لا يأتين فاحشة مبينة .

فان فعلن فإن الله قد أذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان (أسيرات) ، ولا يملكن لأنفسهن شيئا .وإنكم إنما أخذتموهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا ايها الناس قولي فاني قد بينت " .

٥ من خطبة رسول الله في حجة الوداع

obeikandi.com

obeikandl.com

مكان أوحد فى العالم يظهر ويجلى شخصية الإنسان كما خلقها الله، بدون أدنى تغيير أو تبديل أو تحوير، وبدون أقنعة أو دهانات، وبدون تقمص أدوار لا تناسب صاحبها، أو شخصيات لا تلائمه ... هذا المكان هو البيت، لأسباب منها :

- إنه المكان الذى اختاره الإنسان بملء إرادته وكامل حريته، ليكون مكانا يجد فيه السكن والراحة، ويلتمس فيه الأمن والسلام.
- إنه المكان الذى يأوى إليه الإنسان بعد التعب والنصب، وبعد الصراع اليومى بينه وبين العالم، فهو عائد إليه وهو فى قمة التعب والإنهاك، فلم تعد له القدرة أو القابلية على القيام بأى دور من تلك الأدوار أو المهام التى يؤديها خارج بيته، فهو كما يخلع عنه كل الثياب الرسمية أو الملابس التى تحدد وظيفته وتعين دوره، ويرتدى بدلا منها ملبسا كل ما يتوافر فيه أن يكون مريحا للجسم فضفاضا لينا ناعما، لا يرمز إلى شئ سوى أن يحقق لصاحبه ما يبتغيه من راحة، فهو – كذلك – يخلع عنه أو ينحى كل الاعتبارات والرسميات والأدوار والمهام الوظيفية التى يمارسها خارج بيته.
- إنه المكان الذى يخلو من الرقباء ويأمن الإنسان فيه على نفسه من الدخلاء والمتطفلين، ويستطيع الإنسان أن يغلق أبوابه ونوافذه ويسدل ستائره، ويشعر أنه فى عالمه الخاص، فى تلك اللحظة الإنسان لا يواجه إلا نفسه وذاته، فلا مناص هنا من الصدق والصراحة والمواجهة، فإن كذب على العالم كله، محال أن يكذب على نفسه فى هذا المكان، وإن استطاع أن يخدع العالم بشئ فليس معه من أحد ليحاول خداعه، هنا لا أحد سوى ذات الإنسان، لا غرور ولا تكبر لا تصنع لا تجمل وهذا يذكر بقول أبى فراس الحمدانى :

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

هذا من ناحية البيت كمكان ، أما بالنسبة للبيت كمعنى ومشاعر وعواطف فهناك الشخص الذى تم اختياره - أيضا - بملء إرادتك وكامل حريتك ، وقررت أن يكون شريكا لك فى تلك الحياة ، وهى الزوجة ، وعماد العلاقة - بين الزوجين - المكاشفة والصراحة والصدق ، فالرجل يكون فى حالة مكاشفة وصدق وصراحة أكثر مما يكون مع نفسه ، لأن الإنسان فى حاجة أن يمارس كل هؤلاء مع آخر؛ لأن تلك حاجة نفسية ومطلب وجدانى ، يريد أن يرى مردود تلك المكاشفة والصراحة والصدق ، فى حاجة إلى آخر يشهد له أنه مر بمرحلة مكاشفة لكل ما يضمره ويخفيه عن العالم ، وبحالة صراحة لكل ما لا يجرؤ عن إعلانه والتصريح به بوضع صادق متخلصا من الكذب وكل ما يخشاه أو يخافه ، لذلك فلا لوم على الزوج إن كاشف وصارح وصدق مع زوجته بأى شئ ، ولكن اللوم - كل اللوم - يقع على الزوجة إن هى رشحت بما أفضى به الزوج إليها ؛ لأن ذلك يعد صورة من صور الخيانة الزوجية ، وإن تكن فى حدها الأدنى ، إلا أنه شئ لا يليق بالزوجة أن تفعله ، لأن ما يحدث بين الزوجين أمانة ينبغى الحفاظ عليها وعدم البوح بها بأى صورة من الصور.

لكل تلك الأسباب وغيرها ، لا نستطيع أن نجلى شخصية أى إنسان بدون أن نظهر هذا الجانب لأن إغفاله هو بتر لجوانب هامة وأساسية من شخصية الإنسان ، نعم قد يكون هناك حرج ونحن نتناول هذا الجانب ، لذلك فالمرء فى حاجة إلى جرأة وشجاعة ، ولابد أن نرفع هذا الحرج أو نتحمله ، لأن تجلية الشخصية ودراستها أهم من كل شئ . فإذا كان هذا حادث مع الإنسان العادى فإن الأمر مع النبى أشد حرجا وأكثر عنتا ، ولكن نحمد الله أن رفع القرآن عنا هذا الحرج وأبعد عنا العنت ، بأن دخل بيت النبى ، وعرض بكل صراحة وجرأة ما حدث بين النبى وأزواجه من أزمات ومشكلات ومراجعات ، وما كنا لنجرؤ أن نتسور جدران حجرات رسول الله لنطلع على ما يدور خلفها ، ولغابت عنا وجهلنا

جانبا عظيما من جوانب شخصية رسول الله وأثراها وأغناها . ففى تلك الحجرات الضيقة مكانا . والرحبة رحابة الروح . والمتواضعة معيشة . والحافلة بالمشاعر والحب والمودة . نسجت أطهر وأنقى وأروع وأجمل وأجل وأعظم علاقة بين الرجل والمرأة عرفتها الإنسانية قاطبة . ليس هذا فحسب . بل أصبحت تلك العلاقة – بين النبي وأزواجه – منارة يهتدي بها الزوجان حينما تشتد الظلمات وتصطرع الميول والرغبات . ويحل الخلاف والاختلاف ليفسد تلك العلاقة – وأيضا – نورا يبعث الدفء والجمال فى تلك العلاقة . ليحيلها حياة للروح والضمير مآلها البقاء والخلود . قبل أن تكون حياة للجسد مصيرها الزوال والفناء . وعبقا إنسانيا كريما يضوع بالأزمان والعصور . ليبعث فى جوانب الحياة وزواياها البهجة والحبور . وينعش القلب . ويرضى الروح

ولقد أراد الله – عز وجل – خيرا بالإسلام والمسلمين أن شب هذا النزاع والخلاف فى بيت الرسول الكريم . وهو ليس نزاعا وخلافا بمعنى الكلمة ؛ لأن الرسول حسمه فى بداية أمره ولم يجعله يصل إلى مداه واجتثه من جذوره ولم يتركه لينمو ويتفرع . **وعلى كل كان خيرا لأمرين :**

- أنه جلى لنا خطوطا ومواضع هامة عن شخصية الرسول . نحن فى مسيس الحاجة إلى تلك الجوانب فى حياتنا اليومية ونحن نتعامل مع زوجاتنا . لأن الحياة الزوجية أفضل شئ يظهر بجلاء شخصية الرجل "وليس كالحياة الزوجية ما يمتحن الرجل أدق امتحان ويزنه أصدق ميزان وأضبطه "[١١٠] أظهرت شخصية الزوج المحب الرحيم العطوف اللين . وفى نفس الوقت الزوج الحازم القوى الذى يملك أمره وأمر بيته ونسائه وأنه الآمر الناهي – بالحق والعدل – وإن إرادته هى النافذة وأمره هو المطاع .

١١٠- نساء النبي – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (٢٠)

- أنه عرض لنا مثالا يحتذى ، إذا عرضت أزمة أو مأزق لأى إنسان فى بيته وبينه وبين زوجته ، لقد كان الرسول يتبع أسلوب فى غاية الرقى والسمو يتناسب مع مقام زوجاته أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

وإن كانت الأزمات والخلافات التى كانت تشب فى هذا البيت الكريم مما يمكن أن ينشأ فى أى بيت من بيوت المسلمين ، لسبب بسيط أن اللائي يعيشن بين جدران هذا البيت هن بشر ، ولسن ملائكة ، تعتمل فى قلوبهن وصدروهن كل المشاعر والعواطف التى تعتمل فى قلوب وصدور غيرهن من النساء ، ولكن لا تصل إلى مداها ، ولا يسمح لها أن تشتط ، وإنما تذكى وترشد وتصفى ليكون هناك عبرة وعظة .

- **بداية لابد أن نقرر أمرين :**

إن النبى لم يكن له خصوصيات فيما يخص بيته أو زوجاته ، فقد كان ما يحدث فى بيت الرسول وبين أزواجه من حوارات ومناقشات ومراجعات ومأزق وأزمات معروف ومذاع ، وهذا شئ يخالف ما تعود عليه العرب من أن يكون هناك خصوصيات للرجل ، لا سيما ما يمس ويخص أهل بيته ، فقد كانت المرأة فى الحياة العربية دونها حجب وموانع ، ومنطقة ممنوع الاقتراب منها ، كنوع من الحماية والصيانة ، فالمرأة رمز للشرف الذى ينبغى أن يصان ويحفظ ، خصوصا إذا كان الأمر يمس عظيم من عظماء القوم ، ناهيك أن يكون نبيا ، ولو لم يذكر القرآن ما حدث بين النبى وأزواجه فى آيات تتلى ، ربما أنف كتاب السيرة والمؤرخون عن ذكر تلك المواقف والقضايا ، اعتقادا منهم أن هذا أمر يخص النبى وحده ، ولا ينبغى أن نقتحم جدران بيته لنعرف ما يدور خلفها ،ولكن الصحابة رضوان الله عليهم ، لشدة حبهم للرسول ، وحرصهم على أن يقتدوا به فى كل كبيرة وصغيرة، رأوا ألا يجب أن يكون هناك مانع يمنعهم عن رسول الله فى جميع أحواله حتى وهو فى بيته مع أزواجه أمهات المؤمنين " قال عمر رضي الله عنه : ((والله إن كنا فى

الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أئتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ ... فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ، وما تكلفك فى أمر أريده ؟ ... فقالت لى : عجبا يا بن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ .

فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟

فقالت : إنا والله لنراجعه !

ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت لى عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شئ حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه "[١١١] .

لم يكن عمر وحده الذى كان ينبغى التدخل فى أخص خصوصيات النبى.بل العالم كله ، والذى صرح بذلك وأذن - كما قلت - هو القرآن الكريم حينما عرض ما كان من قضايا بين النبى وأزواجه .

والنبى نفسه لم يكن يرى فى حياته البيتية أو الزوجية خصوصية ينبغى ألا يطلع عليها أصحابه أو يستر عنهم شيئا ، لأنه كان يثق فى أصحابه وأيضا يثق فى أزواجه ، لذلك كل التعاليم والآداب التى يجب أن يتأدب بها المسلمون وهم فى بيت النبى أو يتحدثون مع النبى أو مع أزواج النبى ، لم تكن من عند النبى ، ولكن جاءت من عند الله عزوجل ، وكانت قرآنا يتلى ويتعبد به .

- طريقة وأسلوب ومعاملة النبى لأزواجه كانت عمادها الرقى والسمو ، لم تكن علاقة زوج بزوجته ، بل كانت علاقة إحدى طرفيها النبى بكل جلاله ورقيه وسموه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النبى يراعى فى تلك

١١١- المصدر السابق - صفحة (٢٦ - ٢٧)

العلاقة أصل ونسب زوجته ، فلم يكن يعامل ((عائشة)) رضي الله عنها كزوجة فحسب ، بل كان هناك اعتبار أنها ابنة أعز وأحب وأجل أصدقائه ، وهو أبو بكر ، بل أن الرسول لم يقدم على التزوج من ((عائشة)) إلا لأنها ابنة صاحبه ، فقد كان يريد أن يعطى لعلاقة الصداقة بعدا آخر ، وأن تزداد تلك العلاقة قوة ومتانة ، والأمر مع ((حفصة)) رضي الله عنها هو نفس الأمر والمبدأ مع ((عائشة))، فهو لم يتزوج ((حفصة)) إلا لأنها ابنة صاحبه العزيز عليه عمر بن الخطاب، والعادة فى زماننا هذا أن الناس يحبون أن يصاهروا العظيم أو الكبير أو الزعيم ؛ ليزدادوا شرفا وعلوا أو يقتربوا منه أما الرسول فكان يصهر لأصحابه ليزيدهم شرفا وعلوا ويكافئهم على ما قدموه للإسلام والمسلمين ، ولتزداد علاقتهم بهم قوة ورسوخا ، ويجلو هذا قصة زواجه من ((حفصة)) .

" تألم عمر لبنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها، وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها وصباها . وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ورأى ابنته فى حزنها ، فبدأ له بعد تفكير طويل أن يختار لها زوجا قد تأنس على صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد .

ووقع اختياره على ((أبى بكر)) صفى الرسول وصهره ، وصاحبه الصديق.

وارتاح للفكرة ، فإن أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه كفيل بأن يحتمل ((حفصة)) بما ورثت عن أبيها من حدة المزاج وما أبتلاها به الترمل من كآبة وضجر ، وأيضا أن يصهر إلى أحب رجل إلى رسول الله ، ولم يتردد عمر بل سعى إلى أبى بكر ، فحدثه عن ((حفصة)) والصديق يصغى فى عطف ومواساة .

ثم عرض عليه أن يتزوجها . وفى يقينه أن ((أبا بكر)) سيرحب بالشابة التقية ، ابنة الرجل الذى أعز الله الإسلام به .

لكن أبا بكر أمسك لا يجيب ...!

وانصرف ((عمر)) واجدا . لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض ((حفصة)) بعد أن عرضها أبوها عليه .

وسارت به قدماه إلى بيت ((عثمان بن عفان)) وكانت زوجه السيدة ((رقية)) بنت الرسول قد مرضت بالحصبة بعد عودتها من الحبشة والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر ، ثم ماتت بعد أن تم النصر لأبيها والمؤمنين .

وتحدث عمر على عثمان ، فعرض عليه ((حفصة)) وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر ، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه . فلعل الله سبحانه قد اختار لحفصة ((عثمان)) والخيرة فيما يختاره الله .

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما ، جاءه بعدها فقال : ((ما أريد أن أتزوج اليوم !)) فكاد ((عمر)) يتميز غيظا من قسوة الموقف ، ثم ثار به الغضب فانطلق على رسول الله عليه الصلاة والسلام يشكو صاحبيه ... أمثل حفصة فى شبابها وتقواها وشرفها ، ترفض ؟ وممن ؟ من أبى بكر وعثمان ، صاحبى الرسول وصهريه ، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر ، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا؟.

ودخل ((عمر)) على المصطفى وما يملك نفسه من غضب وألم ، فتلقاه عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله فى عطف ومودة عما يؤمله ...

ونفض ((عمر)) لدى الرسول الكريم ما يرهقه ويضنيه ، وكشف له عما كان من أبى بكر بن أبى قحافة وعثمان بن عفان .

فتبسم عليه الصلاة والسلام ، وقال :((يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة)) .

ورد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : ((يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟)) وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة : أيتزوج المصطفى من ابنته ؟

ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه .

ونهض إلى الرسول يصافحه متهللا ، وقد زال ما كان يجد من مهانة الرفض .

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته وإلى أبى بكر وعثمان وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة "[١١٢] .

هذا الموقف العظيم الجليل يجلو ويضئ جانبا من جوانب شخصية رسول الله ، رأى صاحبه حزينا ، وعرف سبب حزنه ، وبيده أن يبدد هذا الحزن ، ففعل بدون أدنى تفكير أو تردد ، والناس فى العادة لا يتزوجون جبرا لخواطر أصحابهم أو تعزية وتسلية لهم ، ولكن النبى كان يفعل ذلك وأكثر من ذلك ، جبرا لخاطر صاحبه ومحوا لمرارة وأسى الرفض الذى جوبه به من صاحبيه الصديق وعثمان وأكثر زيجاته لم يخرجن عن هذا المبدأ ، الزواج عنده تعزية ومواساة وتضميد جرح وجبر خاطر وكفالة وتقوية آصرة وتجميع قلوب وتعضيد للإسلام والمسلمين ، وقلبه وفكره لا يغفل عن القريب أو البعيد ." وتزوج رملة بنت أبى سفيان ((أم حبيبة)) وكانت قد أسلمت مع زوجها عبد بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة، وهناك تنصر زوجها ، وبقيت هى على الإسلام ، ففقدت زوجها ، وعلم رسول الله ﷺ فأرسل إليها يخطبها لنفسه وتزوجها ، وقد أصدقها النجاشى عنه أربعمائة دينار

١١٢- المصدر السابق – صفحة (١٢١)

وحملت إلى المدينة فوجدتْ بيت رسول الله مفتوحا لها بعد أن فقدت أهلها وبيت زوجها "[113].

شخصية إنسانية فى غاية الرقى والسمو . يبذل من ذات نفسه . وفى كل حركة وكل خلجة وكل نفس يتنفسه هناك خاطر لا يغيب عن باله . الإسلام والمسلمين . وقصص زواجه كلها تدل دلالة واضحة على أنه كان هناك هدف بعيد وأكبر وأعلى وأرقى وأسمى من معنى الزواج فقط " وهنا نرى أن تعدد زوجات النبى - ﷺ - كان فى بعضه إنسانيا . كزواجه بنساء فقدن أزواجهن ومعيلهن فضمهن إليه وكان فى بعضه الآخر وفاء بحق صاحبين جليلين وهما أبو بكر وعمر وفى بعضه كان تعزيزا لحكم قرآنى كزواجه بزينب بنت جحش "[114].

إذن لم يكن يربط النبى ونساءه رباط الزوجية فحسب - وهو رباط مقدس - بل كانت هناك روابط أخرى . وكان النبى يقدم تلك الأواصر والروابط على رباط الزوجية . وكان أصحابه - رضوان الله عليهم - يعرفون هذا ويقدرونه تقديرا عظيما . وقد أدرك عمر هذا الأمر . فقد حذر ((حفصة)) ذات مرة من أن تساير ((عائشة)) " وليس لها مثل حظها من حب الزوج ولا مكانتها من قلبه فقال لها : ((أين أنت من عائشة . وأين أبوك من أبيها ؟)) وإذ سمع يوما من زوجه أن ابنته حفصة تراجع الرسول حتى يظل يومه غضبان انطلق من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا ؟ فلما أجابت بأنه حق صاح يزجرها : - تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ لها . والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك . ولولا أنا لطلقك "[115] لولا أنا لطلقك .

١١٣- الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة د. عبد السلام الترمانينى - عالم المعرفة العدد(٨٠) عام ١٩٨٤ صفحة (٢٥٦)

١١٤- المصدر السابق - صفحة (٢٥٧)

١١٥- نساء النبى - د. عائشة عبد الرحمن - صفحة (١٣٦)

إذن هناك علاقات وأواصر ووشائج أخرى كانتْ تربط النبى بنسائه يعرف ذلك النبى ... يعرف ذلك الصحابة ... يعرف ذلك زوجات الرسول . فكان لهن دالة ومنزلة وحظوة عن النبى . وكانت أكثرهن ((عائشة)) و ((حفصة)) لمكانة ومنزلة والديهما من رسول الله ﷺ .

ولا نستطيع أن نحصر الحكمة فى زواج الرسول من نسائه . فكل زوجة تزوجها الرسول تجلو وتوضح خط أو جانب من جوانب شخصيته العظيمة . وهو الجانب الإنسانى البحت ورحمته بالمرأة وعطفه عليها . تلك العاطفة المنزهة عن أى غرض آخر . فلم يكن يضع فى اعتباره أى مصلحة سياسية . لأن أى زواج قائم على مصلحة ما يستنفد أغراضه بانتهاء وبانقضاء تلك المصلحة . ولم يكن النبى فى حاجة إلى تأليف القبائل تحت أى مسمى أو مبدأ غير مسمى ومبدأ العقيدة الدينية " وقد علل بعض الباحثين المتأخرين زواج النبى ﷺ بأنه كان لمصلحة سياسية . أراد بها تأليف القبائل التى ينتمى إليها أولئك النساء . ونحن لا نرى ذلك . فالنساء اللاتى تزوجهن النبى منهن من عقد عليهن وتزوجهن . ومنهم من عقد عليهن ولم يتزوجهن وفارقهن . ومنهن من لم يجتمع بهن . فاللواتي عقد عليهن وتزوجهن منهن قرشيات من بنات أصحابه أو ممن مات أزواجهن . فكان زواجه توثيقا لمودة أصحابه . ومواساة لمن فقدن المعيل ومنهن من كان أهلهن من المشركين وكان يمتنع عليهن العودة إليهم كرملة بنت أبى سفيان . ومنهن نساء سبين فى قتال وكن زوجات لرؤساء فى أقوامهن وقد اصطفاهن الرسول لنفسه لكى لا يقعن فى قسمة من لا يحسن صحبتهن . ثم حررهن وتزوجهن . وليس فى زواجه من بنات صاحبته أو أيمات قتل عنهن أزواجهن أو من نساء سبين بقانون الحرب ما يحقق أية مصلحة سياسية . فزواجه من رملة بنت أبى سفيان وأبوها مشرك لم يخمد سعير الحرب بين قريش وبين المسلمين . وزواجه من صفية بنت حيي أخطب زعيم يهود بنى قريظة . وزواجه من ريحانة بنت زيد بن عمرو زعيم

يهود بنى النضير ، لم يخمد حقد اليهود عليه وأثارة المشركين لحربه ، وهناك نساء من بنات الملوك عقد عليهن النبى ولم يتم الزواج بهن وفارقهن ، ولم يجتمع بهن . منهن فاطمة بنت الضحاك الكلابية ، وأسماء بنت النعمان الكندية ، وقتيلة بنت قيس بن معد يكرب الكندية ، ولو كان يريد تحقيق مصلحة سياسية لما فارقهن وفى اخبار السيرة النبوية ما يثبت أن الأسر الكبيرة والقبائل القوية الممنعة كانت تطمع فى مصاهرته ، ولو شاء أن يتزوج منهن لكسب سياسى لفعل ، وقد أتاه الكسب السياسى من صدق الرسالة التى دعا الناس إليها وصحة العزيمة التى استطاع بها أن يحول مجتمعا من طور الجهالة إلى طور تتقدم به الأمم وينشر فيها الخير والأمن والسلام "[١١٦] .

حينما كان ينتصر المسلمون على قبيلة من القبائل العربية أو حتى اليهودية ، كان الرسول يهدف إلى أن يستل هذا الإحساس بالذل والشعور بالانكسار والمهانة والضعة من صدور أفراد تلك القبائل ، لأن حروب الرسول لم يكن المقصد منها إيقاع الهزيمة بخصومه وإذلالهم ، ولكن حروبه كانت من أجل نشر العقيدة وإخضاع الجميع لشريعة الله عز وجل ، وأكثر ما تكون القبائل ذلا ومهانة حينما ترى نسائها يرسفن فى أغلال الرق والعبودية ، لا سيما بنت زعيم أو شيخ القبيلة ، وربما الذل والمهانة التى تشعر بها القبيلة تباعد بينها وبين الإسلام والمسلمين ، فإذا تزوج النبى من ابنة زعيم تلك القبيلة بعد هزيمتها ، فبدلا من أن تعيش طوال عمرها فى ذل الرق والعبودية تصبح معززة مكرمة ، لأنها زوجة رسول الله ، فهذا من شأنه أن يجعل تلك القبيلة وأفرادها يشعرون بالامتنان والمعروف وسوف يفعل بقية المسلمين ما فعله رسولهم ، وهذا ما حدث بعد أن تزوج الرسول ابنة زعيم قبيلة بنى المصطلق ، " والسيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه ، كانت

١١٦- الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام - د. عبد السلام الترمانينى - عالم المعرفة - العدد (٨٠) - ١٩٨٤ - صفحة (١٩٠ - ١٩١)

بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق ، فأكرمها النبى ﷺ أن تذل ذلة السباء فتزوجها وأعتقها وحض المسلمين على إعتاق سبياهم ، فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم وخيرها أبوها بين العودة والبقاء عند رسول الله ، فاختارت البقاء فى حرم رسول الله " [١١٧]

إنه لا يحارب لإحراز نصر ، أو كسر شوكة خصم ، أو إذلال عدو ، أو لكسب غنم أو تحقيق مجد وشهرة ، إنه يريد أن يشعر خصومه وأعدائه أن عزتهم فى الإسلام ، وهو لا يطالبهم بأن يخضعوا أو يذلوا له ، وإما الخضوع كل الخضوع والإذلال كل الإذلال لله الواحد القهار ، وما ظنك بقائد لا يطلب من خصومه وأعدائه الاعتراف بقوته والخضوع لسطوته والانضواء تحت سلطانه ، وإنما يكونوا مثله وهو مثلهم عبيدا وإدلاء لله .

وقد يثور سؤال هنا ، لماذا لم يعرض الرسول أولئك النسوة على قواده وأصحابه بدلا من أن يتزوجهن ؟

ألم يكن الأولى بالرسول فعل ذلك بدلا من أن يستأثرهن لنفسه ؟

مجرد أن يعرض الرسول المرأة على أحد من قواده أو أصحابه هذه تعد إهانة محققة للمرأة ، وإقرار بعبوديتها وصك بإذلالها وإهانتها .

ذلك لأن المعروض عليه قد يقبل وقد يرفض ، وفى قبوله قد يكون على مضض ، لأنه قد يرى فى عرض الرسول أمرا لا ينبغى أن يخالفه ، وفى الرفض تاكيد لمشاعر الذل والمهانة

ثم أن من النساء اللاتى تزوجهن الرسول لم تكن مرغوبة من الرجال وليست مطمحا لهم

" وقد كانت كل سيدة من أمهات المؤمنين تأوى إلى البيت الطاهر ، فإنما تأوى إليه اعتصاما من الارتداد والوقوع فى أيدى الحاقدين عليها من ذويها

١١٧- المرأة فى القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٩٢)

أو تأوى إليه لإكرامها عن منزلة دون منزلتها أو عن عرضها على من يضارع أهلها ممن لا يرغبون فيها ، وكان فيهن النصف والعاقر ، ومن لا مال لها غير التأيم أو العرض المستكره على أشراف القوم من أندادها ، ولا يخلو ذلك العرض من غضاضة عليها ، لما يساورها من الظن بقبوله حياء من النبي وطاعة لأمره ، وليس لإيثار النبي البناء بالسيدة على عرضها للزواج بين أصحابه غير سبب واحد يعقله المنصف والمكابر ، لأنه لا يقبل الفهم المعقول على وجه آخر : وذلك هو جبر الخاطر والبر بالمرأة المؤمنة أن ينتهي بها إيمانها إلى الحطة والهوان ، ويكفي أن تسرد أسماؤهن وتذكر أحوالهن عند بناء النبي بهن لتنقطع الظنة في أسباب كل زواج سهلته الخصوصية النبوية .

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة ولم يبن بعذراء قط إلا العذراء التي علم قومه جميعا أنه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما بنى – عليه السلام – بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هي الباعث الأكبر في نفسه الشريفة على التفكير في الزواج بهن ومعظمهن كن أرامل مؤمنات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله "[118]

- **بيت رسول الله:**

كان من الممكن أن يكون بيت رسول الله كميدان المعركة ، تحتدم فيه ألوان من الغيرة ، وتشب فيه الأحقاد والتحاسد والتدابر ، وينشب الخصام ويسود التباغض ؛ لأن بيته المطهر قد ضم ألوان شتى من النساء ، مختلفات في كل شيء لا يوجد أدنى تشابه بينهن لا في السن ولا في الثقافة ولا في الظروف التي نشأن وتربين فيها ، ولا في الحالة التي أوجبت على الرسول أن يتزوجهن " تزوج سودة

١١٨- المصدر السابق – صفحة (٩١)

بنت زمعة القرشية وكانت من قبل زوجة للسكران بن عمرو بن عبد شمس القرشي ، فأسلما معا وهاجرا إلى الحبشة ، ثم عادا إلى مكة وتوفى السكران ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها وكانوا مشركين فيردونها عن الإسلام ويروجونها من كافر مشرك ، فخطبها رسول الله ﷺ وتزوجها وحفظ لذلك عليها دينها ، وكانت قاربت الستين من العمر .

ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية وكانت زوجة لعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وأسلمت مع زوجها الذى استشهد فى وقعة بدر وظلت وحيدة بعدة فتزوجها الرسول ﷺ ولم تلبث عند سوى ثمانية أشهر وتوفيت .

وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت زوجة لخنيس بن حذافة السهمى ، وأسلمت معه فى مكة ، واستشهد فى وقعة بدر ، فخطبها الرسول من أبيها ، وتزوجها ليربط بينه وبين أبيها برابطة المصاهرة كما ربط بزواجه من عائشة بينه وبين أبى بكر .

وتزوج هندا بنت أبى أمية من المغيرة المخزومى ، المعروفة بأم سلمة وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، فأسلما معا وهاجرا إلى الحبشة ثم عادا إلى مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، وفى موقعة بدر قتل زوجها فتزوجها النبى ﷺ ، وقد روى عنها كثير من الأحاديث .

وتزوج زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية ، وهى بنت عمته أمية بنت عبد المطلب ، وكان النبى ﷺ قد زوج زينب لزيد بن حارثة الذى كان قد تبناه وقد أراد النبى بذلك تثبيت مبدأ المساواة بين الأشراف والموالى . وكان ذلك ممتنعا قبل الإسلام ، فزينب من طبقة الإشراف وزيد من طبقة الموالى وبعد أن تم الزواج بقى شئ من إحساس الجاهلية وكان زيد مرهف الحس ، فأحس بتعالى زينب عليه ، فشكا ذلك لرسول الله ﷺ وذكر له رغبته فى طلاقها ، فأخذ الرسول يدعوه أن يمسك عليه زوجته وأن يتقى الله فلا يطلقها ، ولما لم يستقم الحال بين الزوجين

طلق زيد زينب ، وأوحى الله لرسوله أن يتزوجها بعد طلاقها ليتأيد بذلك مبدأ إلغاء التبنى الذى أبطله الإسلام ، ويصح لمن تبنى رجلا أن يتزوج مطلقته بعد أن كان ذلك ممتنعا ، وبهذا نزل النص القرآنى فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٧

وتزوج بعد ذلك جويرية بنت الحارث ، سيد بنى المصطلق فقد سباها المسلمون فى جملة من سبوا بعد تغلبهم على بنى المصطلق وكان أبوها وزوجها قد قتلا فى الموقعة ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له فكاتباها على مال تؤديه إليهما فتعتق ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب منه العون ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتخفيف الأسى عن بنى المصطلق ، فعرض عليها أن يؤدى عنها ما طلب منها ويتزوجها فوافقت وتزوجها الرسول ، وقد أعتق المسلمون سباياهم من بنى المصطلق إكراما لهذا الزواج .

وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير اليهودى فقد كانت صفية زوجة كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق من زعماء اليهود ، وقتل عنها فى غزوة خيبر ، فاصطفاها النبى ﷺ لنفسه وخيرها بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها ، ولم تكن جميلة بل كانت قصيرة ، وقد عيرتها عائشة وحفصة مرة ، وقالتا : نحن أكرم على رسول الله منك ، فذكرت صفية ذلك لرسول الله فقال لها : ألا قلت وكيف تكونان أكرم منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى ؟ فاقصرتا عن تعييرها بعد ذلك ، وفيها نزلت آية الحجرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا

مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الحجرات: ١١

وتزوج رملة بنى أبى سفيان (أم حبيبة) وكانت قد أسلمت مع زوجها عبد بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة ، وهناك تنصر زوجها وبقيت هى على الإسلام ، ففقدت أهلها وعلم رسول الله فأرسل إليها يخطبها لنفسه وتزوجها وقد أصدقها النجاشى عنه أربعمائة دينار وحملت إلى المدينة فوجدت بيت رسول الله مفتوحا بعد أن فقدت أهلها وبيت زوجها .

وتزوج ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة ، من يهود بنى النضير وكانت قد سبيت حين غزاهم النبى ﷺ ، فأسلمت وأعتقها الرسول وتزوجها .

وتزوج ميمونة بين الحارث الهلالية ، وكانت من قبل عند حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس ، فمات عنها ، فوهبت نفسها للنبى فتزوجها ، وفيها نزلت آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب: ٥٠ " ١١٩ .

كيف أمكن لرسول الله أن يتعامل مع هؤلاء المختلفات فى كل شئ ؟!

وكيف أمكنه أن يرضيهن ؟!

الذى أمكنه أن يحكم الجزيرة كلها ، وأن ينشر عقيدة من أعظم العقائد التى عرفتها الإنسانية فى معاقل الوثنية والكفر ،ويسوس جبابرة ودهاة وعباقرة من الرجال ، أيعجزه أن يتعامل مع حفنة من النساء ؟!

١١٩- الزواج عند العرب فى الجاهلية والسلام ـ د . عبد السلام الترمانينى ـ صفحة (٢٥٢) وما بعدها

منطقيا لا يعجزه هذا الأمر. فقد أدار بكل كفاءة ومهارة – لم تحدث من قبل فى التاريخ الإنسانى كله – أمر أمة كانت بدرة لإمبراطورية واسعة مترامية تضاءلت بل انهارت دونها إمبراطوريات دلك الزمان .

ولكن لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن شخصية الإنسان خارج بيته غير شخصيته داخل بيته . ولا أقصد أن الشخصية تتغير ، ولكن دورها هو الذى يختلف فدور الرسول خارج بيته معروف .

أما دوره داخل بيته فهو أمر يتعلق بشحن شخصية رسول الله . فمن الصعب – بل من المحال – أن يتحمل رسول الله أعباء النبوة والرسالة ومشاقها ويكون أيضا داخل بيته ناهضا بهذا العبء الثقيل ، وإنما – من الطبيعى – سيكون داخل البيت متحررا من تلك الأعباء والمسئوليات وينعم سويعات بالراحة والاسترخاء والحياة الهادئة الوادعة بين زوجاته . أما ماذا كان يفعل داخل بيته ؟ (كان يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ويكون فى خدمة أهله) . النبى فى بيته يمارس حياته الطبيعية ، وكان نادرا ما يحمل أو يشرك زوجاته فى أعباء الرسالة ، إذا نهضت بعض أزواجه ، بجانب من عبء الرسالة فهذا تطوع منها وكانت تتولى توضيح الجانب الخاص بالمرأة الذى يستحين النساء أن يسألن فيه رسول الله ، أو يستحى الرسول أن يوضحه لهن " أن الروحة منهن كانت تدخل البيت النبوى معتزة بشرف الزواج من النبى المصطفى ، ثم ما تكاد تلقى من فى البيت من أزواج يشاركنها فى رجلها ، حتى ترى فيه ﷺ – الزوج قبل الرسول ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التى تحتدم أحيانا حتى تجاوز المدى وما يكون شيء من هذا فى حياة نساء يرين فى زوجهن نبيا فحسب !

وحياة محمد – ﷺ – فى بيته ، تبدو رائعة فى بشريتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش فى بيته رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان ، ولم يحاول إلا فى حالات الضرورة القصوى أن يُفرض على نسائه شخصية النبى لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما

وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني ولا الجمود العاطفي إذ كان ﷺ سوى الفطرة فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا وينحين عنها كل ظلال الركود والفتور والجفاف "[١٢٠] .

لذلك شعر أزواج النبي أن من يعيش بينهن في البيت لم يكلفهن ولم يشق عليهن أن يطالبهن أن يعاملهن أو يتعاملن معه كنبي وإنما هو زوج ، وليس كأي زوج .

فما يميز شخصية محمد أنه يحب المرأة حبا فطريا صافيا خالصا ، وهذا راجع إلى سواء في فطرته ، وأن المشاعر والأحاسيس والعواطف في كيانه لم يشوبها انحراف أو نقص أو طمس أو تشويه ، وقد رقى وسما هذا الحب الفطري بارتقاء وسمو شخصيته ، أضف إلى ذلك عقيدته ﷺ قد وفت المرأة حقها كما لم توفه أي عقيدة أخرى ، وجميع أقوال النبي في المرأة ووصاياه تثبت أن حب الرسول للمرأة حبا لا مثيل له ، حب ممزوج بالاحترام والتقدير والإكرام والعطف والحنان والمودة والإعزاز والرأفة والرحمة ، هذا الأمر لا يتكلفه الرسول ، وإنما هو أمر فطري في شخصيته ، وخاصية أصيلة من خواص شخصيته الإنسانية . "فالحق أن محمدا ﷺ لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له في طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حي ولا سيما الضعفاء وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال ، فقال غير مرة : ((خيركم خيركم للنساء)) وبلغ من ذلك أنه يأوي إلى البيت ((فيكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)) وأنه استحب خدمة الزوجة في منزلها فقال : ((خدمتك زوجتك صدقة)) وكان أكيس رجل في معاملة أهل بيته ، يشفق أن

١٢٠- نساء النبي – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (٢٢)

يرينه غير باسم فى وجوههن ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء . وإذا خلا بهن ((كان ألين الناس ضحاكا بساما)) كما قالت عائشة رضى الله عنها " [١٢١].

لم يعامل النبى المرأة كامرأة ليؤصل فيها الإحساس بالضعف والمهانة والاحتياج والانكسار كما كان الوضع قبله.

ولم يعامل النبي المرأة كأنثى ليبث فيها الشعور بالضعة والاحتقار كما كان الوضع قبله . ولكنه كان يعاملها كإنسانة لها كافة الحقوق ، كمخلوق له ذاتيته وكيانه المستقل . لذلك لم تكن نبوة محمد فاصلا بينه وبين نسائه ؛ لأن نبوته أصلت وأكدت إنسانيته وأن يتعامل مع من حوله من منطلق إنسانى بحت . " لم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه . بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله فى بعض الأحيان . فكانت منهن من تقول أمام أبيها : ((تكلم ولا تقل إلا حقا)) ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها . ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب فى شدته فيعجب له ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترئ كما تجترئ الزوجات الأخريات .وإذا رأى النبى غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال : ((ما لهذا دعوناك !)) وكان يتولى خدمة البيت معهن . أو كما قال ((خدمتك زوجتك صدقة)) ، فحب المرأة لا معابة فيه .

هذا هو سواء الفطرة لا مراء .

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن غرضه وحتى يكلفه شططا فى طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع " [١٢٢]

١٢١- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (١٨)
١٢٢- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١١٩)

أبدا لم تشغل النبوة محمدا عن واجبه كإنسان ، وأبدا لم تصرفه عن دوره كزوج ، وأبدا لم تستحوذ عليه وتمنعه أن يتصرف كرجل فى بيته ، ولم تهيمن عليه لتكون فاصلا بينه وبين أزواجه " وإنها ترينا النبي فى بيته ، فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته ، كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء "[١٢٣] .

لذلك فنساء النبي – رضوان الله عليهن – لم يغفلن أنهن يعشن ويعاشرن نبيا ، ولكن النبوة التي فهمنها وعرفنها من النبى نفسه أن خلاصتها رأفة وعفو وغفران وحب وعطف ومودة وتسامح ، وهذا طمعهن وجرأهن أن يتعاملن مع النبى بكل تلقائية وحرية لدرجة أن الصاحبي الجليل (عمر بن الخطاب) تعجب بل فزع وارتاع حينما سمع بمراجعة زوجاته له . وهذه خصيصة من خصائص شخصية النبى . أنه لم يكن يحب أن يقيم الناس بينه وبينهم أسوارا من الهيبة والخشية أو يضعوا مسافات من الخوف والإجلال ، وإنما كان يريد أن يشعر أنه بين أصحابه والمسلمين كواحد منهم ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، النبى لم يستمتع بامتيازات النبوة – وللنبوة امتيازات لا شك – وإذا كان هذا أسلوبه وطريقته خارج بيته ، فإنه كان أشد حرصا أن يكون هكذا داخل بيته .

ولنبل شخصيته وكرم أخلاقه ولشدة حيائه ، ترك للآخرين أن يلتزموا بتلك الخطوط الفاصلة فى التعامل معه كنبي ، إن شاءوا وقفوا عندها ولم يتجاوزوها ، وإن شاءوا تعدوا تلك الخطوط ، وفى تعديهم لم يكن الرسول يغضب أو يثور ؛ لأنه لم يكن يغضب أو يثور لشيء يمس شخصه الكريم ، فرحمته ورأفته كانتا تهيمنان على ثورته وغضبه . فكثيرا ما تلقى إهانات وتجاوزات وتعديات بالنسبة لشخصه ممن حوله ، وكان الصحابة المقربون يثورون ويغضبون ويستأذنونه أن يردوا الإهانة ويعاقبون على التجاوزات ، ولكنه كان عالما بمواطن

١٢٣- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٣)

الضعف الإنساني . فكان يرفض رد الإهانة أو العقاب على التجاوز . ويظل مع هذا المهين والمتجاوز . حتى يجعل من أمامه يثوب إلى رشده . ويعرفه أن النبوة تسامح وعفو وغفران .

وما قلنا إن النبي لم يكلف نساءه شيئا من أعباء النبوة والرسالة . وإنما سمح لهن . بل شجعهن أن يمارسن حياتهن في بيته كما خلقهن الله . بكل ما في نفوسهن من نوازع وعواطف ومشاعر . وتلك آية من آيات كمال البشرية في الرسول . أن يشجع الآخريات أن يصلن ببشريتهن إلى تمامها وكمالها . وأن لا يكبتن أو يطمسن ملمحا من ملامح تلك البشرية . وأن يعبرن عن كل تلك المشاعر والأحاسيس ولكن مع ما يتفق وكرامة الإنسان .

لذلك كان أزواجه يمارسن ويعبرن عن مشاعرهن وعواطفهن بكل ـ ـة وتلقائية بدون حرج أو تعنت . ويفعلن ويقلن ما يشأن . فمن كانت تغار على النبي كانت تعلن عن ذلك وتأتي أفعالها وتصرفاتها - وقد تتجاوز الحدود - معبرة عن ذلك . ومن كانت تبرم بعيشتها وضيق النفقة كانت تعبر عن ذلك . ومن كانت ترى أن الرسول يجامل إحدى نسائه عن الأخريات كانت تعبر عن ذلك . وتشكو وتحرص أن تصل الشكوى إلى الرسول . حتى أنهن حينما شعرن بميل الرسول إلى السيدة ((عائشة)) أكثر من غيرها " انتهى بهن الرأى إلى أن يلتمسن من السيدة ((فاطمة الزهراء)) مخاطبة أبيها ﷺ بالأمر . واستجابت رضي الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت : ((يا أبي . إن نساءك أرسلنني إليك وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي بكر بن أبي قحافة)) .

سألها أبوها المصطفى : ((أي بنية . أتحبينني ؟)) .

فهتفت بملء إيمانها : بلى يا أبي .

قال : ((فأحبيبها)) .

وعادت الزهراء إلى أزواج أبيها فنقلت إليهن ما سمعت ، فألححن عليها أن تعاود الحديث فى الموضوع ثانية ، ولكنها أبت أن تكلم أباها عليه الصلاة والسلام فيما يكره .

واخترن من بينهن إحدى اثنتين ، هما أحب نساء النبى إليه بعد عائشة : زينب بنت جحش ، أم سلمة ، فتحدثت إليه ﷺ فيما يشكو نساؤه ، مرة ثانية وثالثة إلى أن قال : ((لا تؤذينى فى عائشة)) [١٢٤] .

أى امرأة وكل امرأة تتمنى فى قرارة نفسها أن يخلص لها زوجها لها إخلاصا تاما ، ولا ترتضى بنصف زوج أو ربع زوج ، فالمرأة تستطيع أن تقاوم الكثير من المشاعر والأحاسيس إلا الغيرة ، فللغيرة سلطان على المرأة لا ينكر ، وهى مهما حاولت أن تخفف من سيطرتها فهى واقعة لامحالة فى قبضتها ، والمرأة لا تغير من ضرائرها فحسب ، بل تغير حتى ولو لم يكن هناك ضرائر ، ولن تعدم أن تجد للغيرة أسبابا ومبررات ، وتشتد الغيرة إذا كان هناك ضرائر ، وتغير بصفة خاصة ن يقربنها فى جمالها أو حسنها أو نسبها ، وتشتد الغيرة أكثر وأكثر إذا كان الزوج له مكانة ومنزلة ، ومع أن الغيرة تسبب للمرأة الكثير من المعاناة والمشقة والألم ، إلا أنه إحساس وشعور محبب عند المرأة ؛ لأنه يؤصل ويؤكد معنى الأنوثة لديها ، وهى ليست على استعداد أن تتخلص منه ، لأن معنى ذلك أن تتنازل عن عاطفة الحب وعن المحب وفوق ذلك إحساسها بأنها أنثى .

" إن الغيرة ثمرة الحب والأثرة والخوف ، وهذه العناصر الثلاثة تثمر فى طبائع النساء ما ليست تثمره طبائع الرجال ، فهؤلاء وهؤلاء يغارون ، ولكن أحرى الـ ريقين بالزيادة من هو أحرى بالإشفاق وأخسر صفقة فى الضياع " [١٢٥] .

١٢٤- نساء النبى – د. عائشة عبد الرحمن – صفحة (١١٠)
١٢٥- هذه الشجرة – عباس محمود العقاد – صفحة (١٣٦)

وعلى المشقة والمعاناة التى كان نساء النبى يجدنها فى حب النبي ، لم يكن يؤثرن أى حياة عليها ، فالمرأة منهن قد ترضى بربع زوج أو حتى بجزء ضئيل من هذا الزوج ، فهى واجدة فى هذا الجزء البسيط ما لم تجده فى العالم كله لو خيرت بين الاثنين " ولو خيرت نساء النبى بين حياتهن المشتركة فى بيت واحد ، لزوج واحد وحياة أخرى منفردة مستقلة فى غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا.

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها ، وقد شهد البيت المحمدى من غيرتهن ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر تنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به والحظوة لديه "[١٢٦]

ولكن ما موقف النبى مما كن يفعلنه بينهن بعضهن وبعض ، وبينهن وبينه؟

هل كان يضيق ذرعا ، هل كان يتأفف ويتبرم ، وإذا كان يضيق لماذا لم يأخذ موقفا حازما من هذا الأمر ؟

لا نستطيع أن ننكر أن النبى كان يتململ من تلك السفاسف والهنات وكان يرى أن يتعالين زوجاته عنها ، أو يتحكمن إلى حد ما فى تلك العواطف والمشاعر ، أو يرشدنها ويوجهنها الوجهة السديدة ، ومع ذلك فقد كانت سعة صدره وحلمه وصبره ، كل هذا يتيح له أن يتغاضى ويعفو ويصفح كى تسير الأمور سيرتها المعتادة فى بيته وبين زوجاته ، "وما من شك فى أن المصطفى قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار ، وما تزال الإنسانية تصغى حتى اليوم ، وغد وبعده ، إلى

١٢٦- نساء النبى – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (٢٦)

كلمته فى زوجته ((عائشة)) حين لجت بها غيرتها الجامحة : ((ويحها لو استطاعت ما فعلت !)) .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء ، وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فى زوجهن الرسول ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما ينبغى لنساء النبى من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الإنكار " [١٢٧]

وما ضر الرسول أن يعيش سويعات ينعم فيها بتلك المشاعر والأحاسيس المتأججة فى صدور نسائه ، وهن يمارسن دورهن الطبيعى بكل أريحية ، ويرقبهن ويتابعهن ويسددهن إلى ما يجب أن تفعله المرأة المسلمة فى بيتها ، وما يجب أن تتخلق به ، وما الأسلوب والطريقة التى يجب أن تتعامل بها مع زوجها ، فهن أمهات المؤمنين وتثوب المسلمات إليهن ليتعلمن منهن الكثير والكثير ، وأن يجتمع هذا العدد من النساء بكل ما بينهن من خلافات واختلافات تحت الرسول والجميع يتسابقن فى إرضائه بكل وسيلة محاولات جذب نظرته واهتمامه ، وفى نفس الوقت كل منهن تحاول أن تصرف نظره واهتمامه عن قريناتها ، هذا - ولابد - من شأنه أن يخلق مشاكل وأزمات فى بيت الرسول ، " وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها إلى أخذ نسائه بالشدة لم يكره ﷺ أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى ضد الوثنية وضد اليهود أعداء الإسلام وأعداء البشر ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ولعله كان مما يرضى الرجل فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج ، وما حاول - ﷺ - أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب

١٢٧- المصدر السابق - صفحة (٢٦)

له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نزازع حواء وأهوائها . ويتجردن من الغيرة والشوق واللهفة والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب . وما كان أحلمه ﷺ وأرق وجدانه وألطف مزاجه ، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له أشفق من جمالها فأوصينها أن تستعيد بالله حين يدخل المصطفى عليها ، استجلابا لمحبته ورضاه ففعلت وسرحها المصطفى قبل أن يدخل بها " [١٢٨] .

○ غضب النبي

وإذا حدث وغضب النبي ، فهو غضب الغرض منه التأديب والتهذيب وإيصال رسالة إلى ما يليق بالزوجة المسلمة من ناحية ، وبزوجة نبى من ناحية أخرى ، وهذا كل ما كان يفعله مع زوجاته ، لا سيما ((عائشة)) رضي الله عنها ، صاحبة المواقف الحادة مع رسول الله ، لأنها كانت أكثرهن حبا لرسول الله ، وأصغرهن سنا ، وأكثرهن دالة على رسول الله ، لذلك فلمشاعرها وعواطفها فورة وثورة فى أحيانا كثيرة لا تستطيع التحكم فيها ، " وكان غضب النبي من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ، ولا يعذرها فيما ينبغى لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التى أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه .

فقلما لامها فى شيء يمسه من غيرتها ، ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التى تمس أناسا آخرين ، فيؤاخذ مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ماأخذها عليه .

عاتبت أمامه زوجته السيدة صفية ، فذكرت من عيوبها أنها قصيرة ، فكره أن تمضى فى حديثها وقال : يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " [١٢٩] .

١٢٨- المصدر السابق – صفحة (٢٧) وما بعدها .
١٢٩- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (٣٥)

هو يعلم أنّ حب ((عائشة)) له ليس كحب بقية نسائه . لذلك فغيرتها ليست كغيرة بقية نسائه ، ولأن حبها له شديد يملأ قلبها والجوانح ، فإن غيرتها تأتى على قدر هذا الحب . وقد تخرجها عن حالتها الطبيعية . فتقول ما ليس لها بحق . فسنها الصغيرة مع قلة تجربتها ، مع طبيعتها المندفعة العصبية مع ثقتها فى حلم وسماحة وعفو الرسول ، كل هذا كان يهيئ لها مواقف قد لا ترضى الرسول لا سيما وإذا عاتبت شخصا له كل التقدير والاحترام والإجلال مثل السيدة ((خديجة)) رضي الله عنها ، فقد كانت ((عائشة)) تغير من مجرد ذكرى ((خديجة)) وهى لم تعد إلا ذكرى يحلو ويطيب لرسول الله أن يسترجع ذكريات تلك الأيام الجميلة مع تلك السيدة العظيمة . " وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة فى ذلك فقال : إن خديجة أوصتنى بها ... فقالت مغضبة :

- خديجة . خديجة ... فكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة .

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحيانا من ثورتها على ذكرى خديجة فغضب فى هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها – أم رومان – عندها فقالت له أمها : يارسول الله مالك ولعائشة ؟! إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها .

فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبا وهو يقول لها :

- ألست القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرًا منها .

فأسكتها قائلا :

- ((والله ما أبدلنى خيرا منها . آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها " [١٣٠]

١٣٠- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (٣١)

▫ المؤامرة النسائية الكبرى

كل هذا مفهوم ومبرر أن يصدر عن نساء النبى .

وكل هذا مشمول بسماحة وعطف وعفو الرسول على نسائه .

وأن يصدر من واحدة أو اثنتين أو ثلاثة .

وأن يصدر منهن بين الأونة والأخرى .

ولكن ما ليس مفهوما ولا مبررا أن يجتمع نساء النبى على أمر جامع ويتخذن موقفا واحدا ويتظاهرن عليه ، ويكون بينهن ترتيبات وتعهدات وتوصيات الغرض منها إحراجه أو دفعه لاتخاذ قرارات قد يلام من أجلها ، وأن تقود واحدة أو اثنتان حركة فى بيت النبي والباقيات يسرن ورائها ، وبذلك لم يعد البيت يمثل السكن الذى يبتغيه النبى ولم تعد أزواجه ملاذ الأمن والراحة والاستقرار " ومدّ لهن فى لجاج الغيرة بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهن به ، وهذه المكانة التى رفعهن إليها ، ومحمد ليس خليا فيشغل وقته بهذا اللجاج ويدع نفسه لعبث نسائه ، فلابد من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور بين أزواجه إلى نصابها ، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه من الدعوة إلى رسالته ، وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن ، فإن ثبن إلى رشدهن فذاك وإلا متعهن وسرحن سراحا جميلا " [١٣١] .

عاصفة فى بيت الرسول .

ما حدث فى بيت الرسول ، وما صدر من أزواجه يحدث مثله وأكثر فى أغلب البيوتات ، ويصدر مثله وأكثر من أغلب الزوجات ، وأهمية وخطورة الموضوع ليس لمجرد حدوثه ، ولكن لأنه حدث فى بيت النبي ، وصدر من أزواج النبي ، وبيت النبي يعتبر البيت الذى يثوب المسلمون كلهم إليه ، يستلهمون منه الحل لكل مشاكلهم ، والخروج من كل مأزقهم ، ويعتبرون زوجات النبي أمهاتهم تربطهم

١٣١- حياة محمد – د . محمد حسين هيكل – صفحة (٣٥٧)

وإياهن أواصر الحب والمودة والإعزاز والإجلال والإكرام . . من هنا يأتى حرص وخوف واهتمام المسلمين ببيت النبى ؛ لأنه يضم بين جدرانه أعز وأحب من لديهم الرسول وأزواجه . وليس كما قيل أن المسلمين خشوا على أواصر المصاهرة والنسب التى تربط النبى ببعض القبائل العربية . وأن تطليق النبى أزواجه تصديع وقطع وتمزيق لتلك الأواصر والوشائج . فما حدث كان يمس المسلمين فى أشياء عزيزة على قلوبهم . فما حدث كان له أبلغ الأثر فى حياة الجماعة الإسلامية كلها " حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((كنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا . فنزل صاحبى يوم نوبته . فرجع عشاء . فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه . وقال : حدث أمر عظيم ! ... قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ .. قال : لا . بل أعظم منه وأطول ... طلق النبي ﷺ نساءه ...))

أن تقتحم قبائل غسان المدينة . وتتعرض المدينة للغزو والحرب وما فى هذا من ويلات للإسلام والمسلمين . أعظم وأجل وأخطر منه أن يطلق النبى نساءه !!

ولكن من الذى فجر وحرك تلك العاصفة . هل نفد صبر الرسول وضاق لما كان يتسع له صدره من قبل ؟ .

أم أن نساءه قد تجاوزن الحد . وتعدين كل الخطوط التى رأى الرسول أنه يجب الالتزام بها ؟ .

أم أن الأمرين حدثا فى وقت واحد . أن صبر الرسول - بالنسبة لأفعالهن - نفد . وأن النساء تجاوزن وتعدين .

من أجل وأعظم المشاهد التى تجلى شخصية الرسول .

يضم المشهد داخل بيت الرسول : الرسول وحوله نسائه . والصاحبين الجليلين أو الوزيرين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وكان قد أذن لهم بالدخول.

خارج بيت الرسول : يجلس المسلمون ينكتون الحصى ، ينتظرون وكلهم قلق وتوتر ، ولا يعرفون حقيقة ما يحدث داخل بيت الرسول ، وهناك أقوال متضاربة ، وأكثرها ترجيحا أن الرسول طلق نساءه أو بعضهن .

" ولما تألب ريبات البيت يشكون ويلحفن فى طلب المزيد من النفقة لبث النبى فى داره مهموما بأمره ، وأقبل أبو بكر فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لأحد منهم ، فدخل الدار ولحق به عمر بن الخطاب . فوجد النبى واجما وحوله نساؤه فأحب أبو بكر أن يسرى عنه بكلمة يقولها وكأنه فطن لسر هذا الوجوم من النبي بين نسائه المجتمعات حوله فقال : ((يا رسول الله ! ... لو رأيت بنتى خارجة ... سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ... ! فضحك النبي وقال : هن حولى ، كما ترى يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عند ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده " [١٣٢] .

أيمكن أن يكون هناك إنسان يصل بالنبل إلى تلك الدرجة ؟ .

أيمكن أن يكون هناك إنسان يرتفع بكرم الأخلاق إلى تلك المنزلة ؟ .

وكان الرسول وضع حلا لكل المشاكل التى تحدث ويمكن أن تحدث فى أى بيت ، وبين أى زوج وزوجته ، لا تشدد ولا تعسف ، وبكل هدوء وبمطلق الحرية والتخيير ... إما ... أو ..... وتنتهى المشكلة ، ويحل المازق .. وتنفرج الأزمة . " هجر النبي نساءه شهرا ، يمهلهن أن يخترن بعد الروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق ، وبين الانصراف بمتعة الطلاق . وبدأ بالسيدة عائشة فقال : ((إنى أريد أن أعرض عليك امرا أحب ألا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك)) فسألته : ((وما هو يا رسول الله ؟)) فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه فى أمرهن . فقالت : ((أفيك يا رسول الله استشر قومى ؟ بل اختار الله ورسوله والدار

١٣٢- المرأة فى القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٩٥) .

الأخرة)) وأجابت أمهات المؤمنين بما أجابت به السيدة عائشةَ . وانتهت هذه الأزمة المكربة بسلام . وما استطاع صاحب الدار – وهو يومئذ أقدر رجل فى العالم المعمور – يحل أزمة داره بغير إحدى اثنتين أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقنعن معه بما لديه من رزق كفاف " [١٣٣] .

٥ كلمة إنصاف لنساء النبي :

ما طلبه نساء النبى من توسعة فى النفقة ليس فيه ما يستدعى الموقف الحاسم الذى وقفه الرسول منهن . إلا إذا كان موقف الرسول هو رد على تصرفات كثيرة ومتعددة لنسائه . وكان الرسول – كما رأينا – يتسامح ويعفو ويتغاضى فأراد الرسول أن يضع حدا لكل ما سبق من تصرفات وأفعال . وما كان يتحمله النبى بالأمس قد لا يتحمله اليوم . وما كان يتسامح ويتغاضى عنه فيما مضى قد لا يتسامح ويعفو عنه اليوم . " وما كان ﷺ فارغ البال لهذا العبث النسوى المسرف . ولا كان يستطيع أن يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها . وأعلن فى حزم أنه منقطع عنهن منصرف عن مؤامرتهن الصغيرة إلى شواغله الكبار " [١٣٤] .

إذن الموقف الذى وقفه الرسول من نسائه كان عبارة عن كشف حساب إجمالى . أو خط فاصل بين أمرين . فقد أراد الرسول أن ينصهرن كلهن ويأتلفن ويتفقن فيما بينهن وينسجمن متخلقات بالخلق النبوى . مستمتعات بما يشيع بين جدران هذا البيت الطاهر من نور ورحمة وحكمة وهدى . وكان يترفق بهن لأنه يعلم أن هذا الأمر شاق على النفس مضنى لها . وأن الأمر فى حاجة إلى سياسة ومعالجة حتى يأخذ بأيديهن إلى ما يرضى الله .

١٣٣- المصدر السابق – صفحة (٩٥)
١٣٤- نساء النبي – د. عائشة عبد الرحمن – (٩٩)

أو أن نساءه قد دخلن فى منطقة محظورة لا يجوز الدخول فيها وهو أسلوب وطريقة ونهج حياة الرسول .

ولكن ماذ طلب نساء النبى التوسعة فى النفقة فى هذا الوقت بالذات وما السياق الذى تم فيه هذا الطلب . " جاء فى البحر : أنه لما نصر الله نبيه ، ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن : يارسول الله ، بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والإماء والحول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وألمن قلبه الشريف – عليه الصلاة والسلام – بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا وأزواجهم " [١٣٥] .

إذن السياق الذى طلب من النبى التوسعة فى النفقة سياق طبيعى فهناك زيادة فى الغنائم التى غنمها المسلمون فى الغزوات التى انتصروا فيها وأقربها ما غنمه المسلمون من بنى قريظة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن ما طلبنه يتفق مع بشريتهن ومع طبيعة المرأة ، ومن ناحية ثالثة أن معيشة الرسول كانت معيشة كفافا " وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد . روى البخارى عن أنس بن مالك قال : ما أعلم النبي رأى رغيفا مرققا حتى لحق الله، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط . وعن عائشة قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين وما وقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار!.

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت السودان ... التمر والماء .

وقالت عائشة أيضا : ((لقد توفى رسول الله ﷺ وما فى رفي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى)) .

١٣٥-التفسير الوسيط للقرآن الكريم - تأليف لجنة من علماء الأزهر الشريف- المجلد الثالث - صفحة (١٧٥)

أما الفراش الذي يأوي إليه هذا النبي ﷺ فهو أدم - جلد - حشوه ليف يثوى فيه قليلا . فما أن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ - الديك - فينهض متأهبا لصلاة الفجر " [136] .

إذن الخير يفيض أمام أنظار وأسماع أزواج النبي ، ونساء المسلمين ينلن الكثير من هذا الخير ويستمتعن به ، ولا غضاضة فى ذلك ، لأن هذا حق . فلم يحرم نساء النبي مما هو مباح وحق لبقية النساء ؟ " ولكن نساء النبي - ﷺ - كن نساء من البشر ، لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية فى المتاع ظلت حية فى نفوسهن . فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي - ﷺ - فى أمر النفقة . فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى ؛ إذ كانت نفسه - ﷺ - ترغب فى أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى . متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر . والاحتفال به أدنى احتفال ، وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها ، لا بوصفه حلالا وحراما - فقد تبين الحلال والحرام - ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة " [137] .

فشيء طبيعي ومنطقي أن يطلبن من النبي التوسعة ، فإن لم يطلبنها فلسن بنساء تتنزى فى كيانهن طبيعة الأنثى التى تهفو نفسها إلى كل شيء جميل وطيب فى الحياة . على هذا فطرت المرأة وعلى هذا خلقت الأنثى ، بغير هذا أنت تكلف المرأة من أمرها عنتا وشدة . " وهذا المنهج الصارم فى المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدة ما كن يعرفنها من قبل لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة .

١٣٦- فقه السيرة - الشيخ - محمد الغزالي - صفحة (٣٨١) .
١٣٧- فى ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الخامس - صفحة (٢٨٥٤) .

Obeikandi.com

وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين .

فلا عجب إذا تململن من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة واجتمعن – على ما بينهن من خلاف – ليسألن الرسول مزيدا من النفقة !!

إنهن في بيت أعظم رجل في العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكانتهن ، وقد تزعم هذه المطالب عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وتبعهن الباقيات ! "[١٣٨].

• طريقة معيشته تكشف بجلاء عن معدن شخصيته :

أكثر وأصدق شيء يكشف عن شخصية الإنسان ، هو طريقة حياته وأسلوب معيشته ، ودعك من أي شيء آخر قد يتكلفه الإنسان أن يتجمل به ، لأن أي إنسان ليس على استعداد أن يعيش على التشقف طوال عمره ليقول عنه الناس أو لمجرد أن يظهر للناس أنه زاهد ، لأنه لو فعل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، فقد أضاع أهم وأجل ما لديه وهو عمره وحياته ، لشيء قد يقوله الناس أو لا يقولونه ينخدعون به أو لا ينخدعون ، إذن أسلوب الإنسان طوال عمره ليس شيئا متكلفا أو مفتعلا ، لأن لا أحد يستطيعه ، فطريقة الحياة وأسلوب المعيشة مسألة مبدأ وشيء فطري مغروز في كيان الإنسان لا يستطيع عنه تبديلا أو تحويلا ، وهو ليس على استعداد أن يضحي به في سبيل إرضاء أي مخلوق أو جلب استحسان أو ثناء الآخرين . ولنا أن نسأل لماذا اختار محمد – ﷺ – أن يعيش تلك النوعية من الحياة ، ويتخذ هذا الأسلوب والنمط في معيشته ،فليس من لوازم النبوة ودواعيها أن يتقشف النبي ، ويميل إلى الحياة الصعبة الخشنة ، ويؤثر هذا الأمر عن غيره ، فقد كان هناك ملوك أنبياء ، وهناك أنبياء أوتوا من الملك ما لم يؤت أحد من العالمين !

١٣٨- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي - صفحة (٣٨٣) .

الأمر العجيب أن محمدا لم يتخذ هذا الأسلوب لأنه لم يكن هناك بديل عنه أو فرضته الظروف وحتمه الواقع ، وإنما كان هناك إصرار من الرسول ، وتعمد ورفض وامتناع عما غير ذلك ، " ولا يحسبن أحد هذا الأخشيشان فعل من لا يجد ! وأنه لو فتحت إلى بيوت النبي ﷺ نافذة تطل على بحبوحة الحياة الراغدة لاستمتع واكتنز ، واستمتع نسوته وابتهجن .

لا ... كان قادرا أن يحجز من المال الذى يمر به ويحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء ، لكن النبي السمح كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينه ترمقان هدفا أسمى ، ولو سيقت إليه خزائن الأرض لفكر – قبل كل شيء – فى إشباع نهمة الناس منها .

عن أبي ذر : كنت أمشى مع النبي فى حرة المدينة ، فاستقبلنا أحد ، فقال : يا أبا ذر ... قلت لبيك يا رسول الله ، قال : ((ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا ، تمضى على ثالثة وعندى منه دينار – إلا شيئا أرصده لدين – إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا)) عن يمنه وعن شماله ومن خلفه .

ثم مشى ثم قال : ((إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم)) .

أن أشهى الطعام فى فم الرجل الشبعان الممتلئ لا مذاق له ، وقد كان النبى شبعان القلب فما يهفو إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو إذا بعثر ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين ، أما هو فغناه فى قلبه "[١٣٩] .

ذلك رجل غناه فى قلبه .

إنه يستمد سعادته وهنائه من قلبه .

ذلك لأن قلبه عامر بالإيمان والقناعة ، ممتلئ بالرضا والحب لله والناس .

١٣٩- المصدر السابق – صفحة (٣٨٢)

وطالب المتعة والمال ، إما أن ينفد هذا المال وتنتقص تلك المتعة ، أو أن يتسرب إلى نفسه الإحساس بالملل من كثرة المال ، أو عدم الاستساغة بالمتع لكلل أصاب الجسم أو مرض ، أما طالب الشعور والإحساس فلدى قلبه معين لا ينضب وعطاء لا ينفد ، يسعد نفسه ، ويسعد الآخرين ، لذلك كان الرسول يجد سعادته وراحته وأمنه وسلامه فى تلك الطريقة من العيش .

○ غناء النبوة وتفردها .

وكأن محمدا رأى فى اجتباء الله له ، وإنعامه عليه بالنبوة أعظم منة من الله ، فعاش بها ولها ، وآلى على نفسه ألا ينال من الدنيا إلا الحد الأدنى الذى يحفظ عليه حياته ، لقد جاء ليقوم من أمر وشان تلك الحياة ، ولن يتسنى له ذلك وهو فى أسر ما فى الدنيا من متاع وزينة ، أو وهو خاضع لحكمها ، ومضطر لظروفها ، فليس للحياة الدنيا سلطان عليه ، بل هو المالك لأمره ، المتصرف لشأنه لذلك لن تجد أحدا يصدر حكما أو وصفا دقيقا وصادقا مثل أحكام محمد - ﷺ - على الدنيا .

النبوة ملأت كيان وفكر وضمير محمد ، فلم يعد هناك مكان للتفكير فى نعيم الدنيا ، أو أن محمدا أراد ألا يشغله شيء من أمر الدنيا عن النبوة ، لأن أى أمر حتى ولو هان شأنه شغله أو أهمه فهو على حساب النبوة وشواغلها ، أو أن محمدا أراد أن يظل على صلة وثيقة بفئة من فئات أمته الحريص عليها ، وهى فئة الفقراء والمساكين ، فهو يعيش عيشتهم ، ويحيا حياتهم ، ويبتلى بما يبتلون به ، إنه أسلوب ارتضاه واختاره وأحبه ، ودأبه وديدنه إذا اختار شيئا أو صمم علي شيء فالعالم كله لن يثنيه عما اختاره أو يزحزحه قيد أنملة ، فأهم شيء يميز شخصه قوة إرادته وصلابة تصميمه التى تخر لها الجبال ، وتعنو لها أعناق الجبابرة .

وهنا يتبادر سؤال: هل فرض محمد - ﷺ - أسلوب حياته على أزواجه ؟ أو هل استغل محبة أزواجه لإجبارهن على أن يتخذن أسلوبه فى العيش ؟

ولكن إذا اختار الإنسان أسلوبا ما فى حياته ، وهذا الأسلوب وتلك الطريقة شاقة على النفس ، وفيها الكثير من العنت والشدة ، فهو حر فى ذلك، ولكن ما ذنب المقربين منه والمتصلين به ؟ فليس اختياره اختيارهم ، وليس قناعته قناعتهم ، وليس الأسلوب الذى اختاره حتما وملزما لهم ، أو على الأقل من حق من يعيشون معه ان يكون لهم مطلق الحرية أن يتبعوه أو لا يتبعوه ، فربما أوتى من القوة والقدرة والعزم والتحمل ما لا يتوافر لديهم !

كان الرسول يدرك تلك الحقيقة ، بل لم يدركها أحد بوضوح وجلاء مثلما أدركها محمد ، فهو يعرف أن الإنسان ضعيف ، وأن النفس أضعف ما نكون أمام مغريات الحياة الدنيا .

« حينما كان يرى أن أصحابه يريدون أن يتشبهوا به فى كل شيء فهو ينهاهم ، لأنه يدرك أن أصحابه قد لا يستطيعون ما يستطيعه ، وقد لا يتحملون ما يتحمله ، وقد لا يقدرون على ما يقدر عليه ، فقد كان يواصل الصيام ، ويقوم الليل حتى تتورم قدماه ، حتى أن من حوله كانوا يتعجبون من ذلك ويقولون له : ((ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) إلا أنه كان يرى أن هناك ضريبة لهذا الغفران ، وهو مزيد من الشكر والعبادة والتذلل لله .

نعم كان أصحاب النبي أحرارا أن يتبعوا هذا الأسلوب الخاص فى الحياة أو لا يتبعوه ، لأنهم ليسوا ملاصقين النبي ليلا نهارا ، أما مع أزواج النبي فالأمر مختلف ، نعم هن أحرار أن يلتزمن بهذا الأسلوب أو لا يلتزمن ، ولكن الحرية هنا لها وجه مختلف ، فهناك صلة أو علاقة تربط النبي بأزواجه ، وهى علاقة الزوجية تلك العلاقة تفرض أو تحتم على الزوجة أن تتبع أسلوب وطريقة ونهج الزوج فى المعيشة ، وهنا أيضا يتوافر عنصر الحرية والتخيير ، فإما أن توافق وترتضى طريقة المعيشة ، وإما أن ترفضها ، ولكن فى حالة رفضها لأسلوب المعيشة هى تفصم عرى

تلك العلاقة الزوجية ، فرفض طريقة معيشة النبي أو التململ ، هو فى نفس الوقت قطع ونقض لتلك العلاقة .

إذن حدث هنا امتزاج أو تطابق بين النبى وأسلوبه فى المعيشة والحياة أو أراد النبي أن يكون هذا ، رفضت أسلوب النبى فقد رفضت العيش مع النبى قبلت أسلوبه فقد ارتضيت ووافقت العيش معه .

ولا أحد يقول إنه ليس هناك امرأة تزوجها النبي تجرأ على أن توافق على أن يطلقها النبي ، فتطليق النبي لأحد أزواجه لن يخرجها عن الملة ، ولن يضيرها فى شيء ، وجاءت آيات القرآن الكريم واضحة كل الوضوح ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٨ .

" أى : قل أيها الرسول الكريم - لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ولا تستطعن الصبر على المعيشة معى فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر منه ولا ظلم معه ، لأنى سأعطيكم ما هو فوق حقكن " [١٤٠] .

هنا كل الضمانات مكفولة للزوجة إذا طلبت الطلاق ، ثم أنها لن تضار أدبيا ولا معنويا .

ولا أحد يقول أن النبي قد استغل حب واعزاز وإجلال نسائه له . فهو - لا شك فى هذا - يعلم أنهن يرتضين أى شيء إلا فراقه والبعد عنه ، إذن القضية حسمت ، فالحب لشخص الرسول نابع منهن ، لأنك قد تجبر الإنسان على فعل أى شيء إلا الحب ، وإذا كن نساء النبي يحببن الرسول ، فهن على استعداد على تحمل ما يفرضه هذا الحب عليهن ، وحب بدون التزامات ومسئوليات هو نوع من العاطفة الخرقاء لا مبرر لها ، وأنت إذا أحببت إنسانا أو رضيت بالارتباط به

١٤٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د. محمد سيد طنطاوى - المجلد الحادى عشر - صفحة (٢٠٢)

ارتباطا زوجيا ، فإن هذا الحب والارتباط يتضمن القبول التام بمشاركة الطرفين في كل شيء ، طالما لا يتضمن هذا الشيء معصية الله .

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٩ .

إذن هما أمران عرضا على نساء النبي بصفة خاصة ، ومعرضان على البشر بصفة عامة رجال ونساء منذ أن أنزل الله – سبحانه وتعالى – الآيات الكريمة على النبي الجليل إلى أن تقوم الساعة ، وعلى الإنسان أن يختار – بكل حرية – أحد الطرفين ، متحملا ما يترتب على هذا الاختيار . وما من قلب إلا وتتنازع فيه هاتان الرغبتان ، الدنيا والآخرة . وجاءت الآيات لتحسم وتفصل في هذا التنازع ، " لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة ، هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي – ﷺ – وحياته الخاصة ؛ وأن يتحقق في أدق صورة وأوضحها في هذا البيت الذي كان – وسيبقى – منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها " [١٤١] .

وإذا كن نساء النبي قد نظرن إلى الدنيا ، أو أردن أن يعشن كما تعيش بقية النساء ، فهذا غير جائز ، لأنهن ببساطة أزواج النبي ، والنبي ليس كبقية الرجال ، فهو قدوة وأسوة يقتدى بها ويتأسى بها ، كذلك نساؤه لسن كبقية النساء ، إنهن قدوة وأسوة لبقية نساء المسلمين من ناحية ، ومن ناحية أخرى حملن شرف وجلال الانتساب إلى النبي كأزواج .

فما حدث في بيت الرسول ما كان ينبغي أن يمر مرا عابرا ؛ لأنه يمس حياة الرسول وأزواجه في الصميم ، – وأيضا – يمس جوهر المجتمع الإسلامي ، وما جاء مترتبا عليه يرسم بكل وضوح وجلاء ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته الزوجية ، " ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض

١٤١- في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٥٥)

زواياه ، إنه يحدد التصور الإسلامى الواضح للقيم ، ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة ولكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة ، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء ، ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه . هذا من جانب ومن الجانب الآخر يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله - ﷺ - والذين عاشوا معه واتصلوا به . وأجمل ما فى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية . مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها ؛ ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه . فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمح فى تلك النفوس ، ولكنها ارتفعت وصفت من الأوشاب ، ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان " [١٤٢]

وإذا كان الاتصال بشخص رسول الله والقرب منه والانتساب إليه نوعا من التشريف ليس بعده شرف ، فإنما يتضمن فى نفس الوقت نوعا من التكليف وتكليف ثقيل وليس هينا . فكما قال المتنبي :

على قدر أهل العزم تاتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

فعلى قدر الشرف والمكانة والمنزلة التى بلغها نساء النبي ، يكون الحساب والمؤاخذة ، فهن لسن ملزمات أن يتبعن طريقة الرسول فى المعيشة وأسلوبه في الحياة فحسب ، بل أن يعملن على الحفاظ وصيانة أنفسهن والارتفاع والارتقاء إلى المكانة والمنزلة النبوية ، " إنها تبعة المكان الكريم الذى هن فيه ، وهن أزواج رسول الله - ﷺ - وهن أمهات المؤمنين وهذه الصفة وتلك كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة ، وتعصمانهن كذلك من مفارقة الفاحشة . فإذا فرض وفارقت

١٤٢- المصدر السابق - المجلد الخامس - صفحة (٢٨٥٥)

واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لا خفاء فيها ، كانت مستحقة لضعفين من العذاب . وذلك فرض يبين تبعة المكان الكريم الذى هن فيه ((وكان ذلك على الله يسيرا)) ... لا تمنعه ولا تصعبه مكانتهن من رسول الله المختار .. كما قد يتبادر إلى الأذهان !.

((ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا)) والقنوت والطاعة والخضوع . والعمل الصالح هو الترجمة العملية للطاعة والخضوع .. ((نؤتها أجرها مرتين)) ... كما أن العذاب يضاعف للمفارقة ضعفين ((واعتدنا لها رزقا كريما)) فهو حاضر مهيأ ينتظرها فوق مضاعفة الأجر فضلا من الله ومنة " [١٤٣]

٥ مراضاة الأزواج :

لكم هى عظيمة وجليلة شخصية هذا الرسول . والأعظم والأجل تلك الأفعال والتصرفات لهذا الرسول ، ولولا هذا ما دخل القرآن فى حياة الرسول البيتية، ونشر وأعلن أدق الأسرار ، وأمس الخصوصيات بحياة النبي . لقد رسم القرآن صورة لشخصيته ، وأنت لا تستطيع أن ترسم صورة لإنسان بخطوط مستقيمة ولا بمساحات مضيئة ، فلابد أن يكون هنا خط منحنى ، وهناك خط منكسر ، ولابد أن تكون مساحات الظل موجودة بجوار مساحات الضوء ، ولا بد أن تكون مساحات الظل متفاوتة وكذلك مساحات الضوء .

لذلك كان القرآن حريصا على ألا يكون هناك خصوصيات للرسول ، حتى ما قد يسبب للرسول خجلا أو حياءا ، ليخجل الرسول وليزدد حياءا ، ولكن ربه رأى أن ما يستفيده الإسلام وما يخرج به المسلمون والمسلمات من عظة وعبرة ودرس ، يفوق ويربو على إحساس الرسول بالخجل والحياء ، هذا إذا كان الرسول يخجل من مواضع بشريته ودلائل إنسانيته ، فقد نذر نفسه منذ أول لحظة دعا الناس فيها إلى تلك العقيدة ، فكل شيء فى حياته العامة والخاصة لا قيمة له ما لم

١٤٣- المصدر السابق – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٥٣) .

يكن فى سبيل تلك العقيدة . " ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها . تقرأ فيه صورة هذه العقيدة . وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا . ولا سترا مطويا بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن . ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى . حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول - ﷺ للناس . إنه ليس له فى نفسه شيء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ - ﷺ - أو يخبأ ؟ إن حياته هى المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة . وقد جاء - ﷺ - ليعرضها للناس فى شخصيته وحياته . كما يعرضها بلسانه وتوجيهه ولهذا خلق ولهذا جاء .

ولقد حفظ عنه أصحابه - ﷺ - ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيرا - أدق تفصيلات هذه الحياة فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى فى حياته اليومية العادية لم تسجل ولم تنقل ... وكان هذا طرفا من قدرة الله فى تسجيل حياة هذا الرسول . أو تسجيل دقائق هذه الحياة . أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة فى حياة الرسول . فكان هذا على جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقى للبشرية إلى نهاية الحياة "١٤٤ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ

١٤٤- المصدر السابق - صفحة (٣٦١٠)

﴿ ٥ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ٥ ﴾ التحريم ١ - ٥

أى ما كان الأمر الذى دفع الرسول للتحريم – سواء كان شرابا أولقاء بأمة أو بمارية فى حجرة السيدة حفصة – فإن هذا لا يعنينا فى قليل أو كثير، لا لشيء إلا لأن القرآن لم يذكره، ليس لعدم أهميته، ولكن لأن هناك الأهم والأجدر والأولى بالاعتبار، وهناك ما يجب أن نقف أمامه نستخلص منه العبرة والعظة، والأهم أن هناك ما يلقى ضوءا على جانب عظيم من جوانب شخصية الرسول أو يأخذ بأيدينا لنطلع ونرى.

فى البداية تذكر الآيات أنه قد وقع تحريم من الرسول، والتحريم نوع من التضييق والتشدد والتعنت، مع أن الله – عزوجل – قد وسع على رسوله وسهل ويسر، وحياة الرسول حافلة بالمشقات والأزمات والمجاهدات من جراء العمل والسعى لنشر الإسلام وتوطيد أركانه فى النفوس وفى الأرض، لذا فالأمر ليس فى حاجة إلى مزيد من التضيق والعنت يفرضه الرسول على نفسه، فحسب الرسول ما يلقى من المعاندين والكفار والمنافقين والحاقدين، وهنا نلحظ العناية الواضحة والاهتمام من الله – عزوجل – لنفسية الرسول والحرص على أن تكون نفسيته خالية مما يعوقها أو يثبطها، فيجب أن تكون متفرغة تفرغا كاملا للجهاد والكفاح، فى سبيل الدعوة، هذا من ناحية منطق العتاب أو العجب من فعل الرسول، ومن ناحية أخرى أن الذى يحرم أو يحلل هو الله، وليس الرسول، نعم إن التحريم أوقعه الرسول على نفسه، ويقول المفسرون إنه ليس تحريما شرعيا، ولكن حتى هذا لا ينبغى للرسول فعله." قال بعض العلماء ناداه بلفظ ((النبي)) إشعارا بأنه الذى نبئ بأسرار التحليل والتحريم الإلهى، والمراد بتحريمه ما أحل له امتناعه منه، وحظره إياه على نفسه، وهذا المقدار مباح، ليس فى ارتكابه جناح وإنما قل له (لم تحرم ما أحل الله لك) رفقا به، وشفقة عليه، وتنويها لقدره

ومنصبه - ﷺ - أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألفه من لطف الله -تعالى- به ورفعه عن أن يجرح لسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه [١٤٥]

نأتى إلى العلة والسبب الذي من أجله وقع التحريم من الرسول (تبتغى مرضاة أزواجك) فالرسول حريص على أن يرضى أزواجه ، وهذا فى حد ذاته نوع من النبل والكرم ويزداد نبله وكرمه حينما يتوصل إلى تلك المرضاة من خلال التضييق والتشديد على نفسه ، ولكن إذا كان هذا جائز حدوثه من أى رجل ، فهو لا يجوز أن يحدث من النبي ، لأنهن - أزواج النبي - هن اللاتى يجب أن يحرصن على مرضاة النبي وطاعته ، وليس العكس ، ويسارع الله - عز وجل - فى مواساة نبيه (والله غفور رحيم) غفر لك ما حدث ورحمك بأن وسع عليك بأن تحل يمينك .

ماذا حدث ؟

أسر النبي إلى إحدى زوجاته حديثا ، ومعنى أسر أنه أخبرها دونا عن الأخريات ، وأنه استكتمها هذا الحديث ، هنا لا يجب أن يشغلنا موضوع الحديث وكذلك لا يشغلنا اسم الزوجة ، وإنما المهم أن هناك سرا بين النبي وإحدى زوجاته وطالما أودع الرسول لديها سرا ، فينبغى أن تكون أهلا وجديرة بهذا الأمر ، فأي زوجة لأي رجل لو استكتمها حديثا وأذاعته فهذه صورة من صور الخيانة ، خيانة أمانة السر ، وللزوج أن يغضب ، وللغضب أن يتصاعد ، ليصل الأمر إلى الفراق والطلاق ، فإذا سولت نفس الزوجة أن تفشى سرا طلب الزوج أن تكتمه ، فأين يضع الزوج أسراره إن لم يضعها عند زوجته ؟! ومن الجدير بالحفاظ على السر إن لم تكن الزوجة ؟

هذا مع الرجل وزوجته ، فكيف لو كان الرجل هو النبي ، والزوجة هى زوجة نبي ؟

١٤٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - محمد سيد طنطاوى - المجلد الرابع عشر - صفحة (٤٦٨)

هنا الأمر فى غاية الخطورة ، والأمر تجاوز أن يكون من خصوصيات النبي وأزواجه ، لذلك تدخل القرآن ليحسم تلك القضية ، فقد أخبر الله رسوله أن زوجته قد نبأت به غيرها ، وعرف النبي الزوجة بأنها لم تصن السر ، ولنبل شخص الرسول لم يشأ أن يعرضها لكثير من الحرج ، ولم يطل بها الأمر ، فسألته : من أخبرك ؟

فقال : نبأني العليم الخبير .

ثم تتجه الآيات إلى مخاطبة زوجين من أزواج الرسول ، مع العلم إن التي أخبرت واحدة فما بال الآيات تخاطب اثنتين ؟

لأن الأولى أخبرت الثانية ، وكان المفروض من الثانية أن تنصح الأولى بعد إفشاء السر ، ويستكتما الاثنتان الحديث ، ولكن الاثنتين أذاعتا الحديث بين بقية أزواج النبي ، وبعملهما هذا قد مالتا عن الحق ؛ لأن هذا ليس من شيم أزواج نبي كريم ، وليس أمامهما – فى تلك الحالة – إلا التوبة ، لأن ما فعلاه ذنبا يستوجب التوبة .

○ مهمة أزواج النبي:

لأزواج النبي مهمة مقدسة ، وهو الحفاظ على شخصية الرسول أن يناله أى نصب أو تعب ، وإبعاده عن أى قضايا أو مشكلات أو أزمات تكون من شأنها أن تشغله أو تعرقله عن تأدية مهمته المقدسة ، والتخفيف عنه والترويح ، فهو يحمل أعباء تنوء تحتها الجبال الشم ، ويكافح ويجاهد فى ميادين شتى ، ووجوده كله متعلق برسالة إلى الإنسانية جمعاء ، فإذا عاد إلى بيته فلابد أن يجد الهدوء والأمن والاستقرار والسكينة ، ولابد أن تقوم على هذا البيت زوجة تعرف حقا مهام النبي وأعبائه وكل ما يواجهه من مشقة ، فتألو على نفسها أن تزيح عن كاهله كل تلك الأثقال والأوزار ، وتضمد جراحه وتشفى آلامه ... نعم ، زوجة واحدة قد لا تنهض بهذا العبء الثقيل ، وربما تكون الحكمة من تعدد أزواج النبي – مع بقية الأسباب – أن يتعاون ويتآزرن ويتشاركن فى أداء تلك المهمة ، فإن عجزت إحداهن ، فهناك

الأخريات ، وإن تعبت إحداهن فهناك التى لم تتعب ، وإن سأمت وملت إحداهن فهناك التى لم تسأم ولم تمل ، فراحة واستجمام الرسول هى فى تلك السويعات التى يقضيها فى بيته ، ومع زوجه ، فى جو من الحب والحنان والأمن والسكينة والهدوء .

أما أن ينقلب البيت إلى ميدان معركة ، وتحاك فيه الاتفاقات والمؤامرات والمعاهدات ، ويجتمعن على شخص الرسول الكريم ، ويدفعنه إلى فعل يعاتبه الله - عز وجل - عليه ، فإن هذا الامر يوحى أن أزواج النبي حدث منهم تفريط فى المهمة المناطة بهن ، نعم الدافع لهن حبهن للنبي وغيرتهن عليه ، ولكن إن جاز هذا فى كل البيوت فإنه لا يجوز فى بيت النبي ، وإن حدث هذا من كل النساء - وهو منطقى ومتسق لطبيعة المرأة - فلا ينبغى أن يحدث من نساء النبي ، فيجب أن يتعالين ويتسامين فوق كل تلك المشاعر الطبيعية .

وإذا كن تجمعن عليه وتحزبن ضده ، فإن حزب النبي هو الغالب ، لأن الله معه وجبريل وصالح المؤمنين ، وبعد كل هذا الملائكة معينة ومساعدة له ، فإن النبي مؤيد بكل هؤلاء .

ثم تطلق الآيات طلقة من العيار الثقيل ، فربما أن طريقة معاملة النبي لأزواجه وعطفه وحدبه عليهن أنساهن أن فى يده أن يطلقهن ، وأن الله قادر على أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، - هذا إن تم الطلاق وخرجتن من عصمة النبي - وأولئك الأزواج يتوافر فيهن ما يجب أن يتوافر فى أزواج النبي ، أنهن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وأبكار ، وإذا عرفت المرأة أن الزوج فى يده أن يطلق ، ليس هذا فحسب ، بكل قادر على أن يستبدل بدلا منها يتوافر فيها ما كان يتوافر فى أزواجه السابقات بل وأكثر ، إذا علمت المرأة بكل هذا ، فقدت كل مما لديها من دلال وزهو وأسلحة .

○ ما دلالة كل هذا على شخصية الرسول ؟

من يستعرض سيرة الرسول ، سيجد أنه حريص أشد الحرص على إرضاء كل من حوله ، هذا الحرص يصل إلى مداه ، إلى الدرجة التى يكلف الرسول نفسه كثيرا من المشقة والتعب ، ولكن كل هذا يهون عند النبي حينما يجد نفسه قد وفق إلى إرضاء من حوله ، صغيرا كان أم كبيرا ، رجلا كان أم امرأة ، هذه خصيصة من خصائص شخصية رسول الله ، حرص لا نهاية له حتى مع الكافرين المعاندين ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف: ٦ .

فإذا كان هذا شأن الرسول مع من حوله ، فكيف يكون شأنه مع أزواجه، لا شك أنه سيكون حريصا حرصا شديدا على أرضائهن ، ولا شك أنه قد حدثت مواقف كثيرة أثبتت لنساء النبي أنه حريص على أرضائهن ويكلف نفسه الكثير من العنت فى هذا ، وهو لا يملك ألا يفعل ذلك ، لأن تلك الصفة أصيلة فى شخصه ، ولا تكون الصفة أصيلة فى شخص الإنسان إلا إذا خرجت من مجال التحكم فيها إراديا ، فهى تصدر عنه صدورا تلقائيا ، فهو لا يملك لها تبديلا أو تحويلا أو تغييرا .

وحرصه على إرضاء أزواجه ، وعدم إغضابهن لم يفارقه حتى وهو يعاتب زوجته التى أفشت سره (عرف بعضه وأعرض عن بعض) فهو لم يشأ أن يؤلمها ويطيل إيلامها ، ولم يشأ أن يحرجها ويمعن فى هذا الإحراج ، مع أ ن الأمر يستدعى ذلك ، إلا أن شخصية الرسول تأبى إلا التمسك بصفة الكرم والنبل .

وعجيب أمر هذا الرسول ، فحينما تثار أي أزمة فى بيته ، لا يتولى هو العقاب أو التأديب أو اللوم ، وإنما يتولى ذلك عنه الله – عز وجل – أو يخبر الله نبيه الكريم أن يقول لأزواجه ....

وهذا يدل على أن الله شديد الحرص والرعاية والعناية والغيرة على شخص رسوله ، فلا يترك الرسول ليتولى التأديب أو اللوم وإنما هو الذى يتولى ذلك .

أو لأن اللوم والتأديب والتأنيب يستدعي نوعا من الحسم والحزم والشدة والتى قد تصل أحيانا إلى القسوة . وهذا ما لا يتناسب وما طبع عليه الرسول من رحمة وعطف وحدب على المؤمنين (بالمؤمنين رءوف رحيم) .

أو لأن الرسول ليس من الشخصيات الحريصة على مكانتها فى قلوب المحيطين به فهو من المتواضعين الزاهدين عن أن يبجل أو ترتفع مكانته عن بقية المؤمنين . وكثير من الأقوال والأفعال التى صدرت عنه تطالب المسلمين أن لا يبالغوا فى تقديره أو يعاملوه كملك أو رئيس أو سلطان . وإنما يجب أن يعاملوا ويتعاملوا معه كواحد منهم ليس له عليهم من فضل .

وإنما كل حرصه على مكانته عند الله - عز وجل - محتكما إلى المعيار العظيم (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .